بحث

في نسبة رسالة « الاستواء والفوقية » إلى أبي محمد الجويني رحمه الله

كتبه

زهران كاده

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد ولد آدم أجمعين نبينا محمد وعلى آله الطاهرين وصحابته الغر الميامين، أما بعد فإني لما كنت اشتغلت بالبحث في باب الصفات بقصد ضبط الباب لنفسي[1] اتفق لي كتاب النصيحة في صفات الرب جل وعلا لعماد الدين الواسطي فقرأته وقيدت ما رأيته يفيد بحثي منه، كما أني وقفت على رسالة أبي محمد الجويني في الاستواء والفوقية وقيدت منها أيضا فوائد، ولا أذكر الآن أيهما وقع لي أولا، ثم عند ترتيب المباحث والجمع بين النظائر لاحظت أني قيدت كلاما للواسطي يطابق ما قيدته من رسالة الجويني، فعجبت من الأمر، ثم مع إعادة النظر في الكتابين تفاجأت بأن الكتابين نصهما واحد[2]، ولما كان ما بين القراءتين متباعدا لم أفطن لذلك في بادئ الأمر، ثم بعد النظر والتأمل ترجح عندي أن الكتاب للواسطي لا للجويني، وهذا ما سنبينه في السطور الآتية.

نقول بداية: رسالة الاستواء والفوقية لأبي محمد الجويني مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية في المجلد الأول من (ص 174) إلى (ص 187)، كما أنها طبعت مستقلةً بدار طويق في الرياض بتحقيق أحمد معاذ بن علوان حقي.

وبعد مطالعتي لترجمة أبي محمد الجويني في عدد من كتب التراجم كطبقات الشافعية لابن قاضي شُهْبة وطبقات الشافعيين لابن كثير وطبقات الشافعية الكبرى

---

(1) ثم استحال ذلك عزما على تصنيف « الدرة البهية في صفات الله العلية » يسر الله إتمامه.

(2) سوى فصل (في تقريب مسألة الفوقية من الأفهام بمعنى من علم الهيئة لمن عرفه) فإنه موجود في رسالة الاستواء والفوقية (ص 81- 83) دون النصيحة للعماد الواسطي.

لابن السبكي ووَفَيات الأعيان لابن خَلِّكان والوافي بالوفيات للصَّفَدي وسِيَر أعلام النبلاء للذهبي، لم أجد ذكرا للرسالة في ترجمته، غير أن هذا لا يستلزم نفي نسبتها له، لأن المترجمين لا يشترطون الاستقصاء وإنما يكتفون بمشهور المصنفات بل إنهم أحيانا لا يذكرون كلَّ المشهور، غير أن الزركلي في « الأعلام » ذكرها من مصنفات أبي محمد الجويني حيث قال: " وله رسائل، منها (إثبات الاستواء – ط [1]) رأيت في ظاهر أصلها المخطوط ما نصه: « قال شيخ الإسلام الصابوني: لو كان الجويني في بني إسرائيل لنقلت لنا أوصافه وافتخروا به » " [2].

وقد ذكر محمد الزحيلي في كتابه « الإمام الجويني إمام الحرمين » [3] (ص 113) أن من مؤلفاته رسالةً في الاستواء والفوقية، وذكر أن منه نسخة مخطوطة بالموصل، معتمدا في ذلك على كتاب مخطوطات الموصل لداود الجلبي الموصلي.

قال زهران: لكن إمام الحرمين هو ولد أبي محمد الجويني الذي تنسب إليه الرسالة، فلعل ما ذكره سهو منه، أو من مؤلف كتاب مخطوطات الموصل، والزحيلي نقله.

ثم إن الذي يطالع الرسالة المذكورة يجد فيها نفَسا حنبليا ظاهرا يَبعُد جِدا أن يكون مصنفها متكلما رجع إلى طريقة السلف وأهل الحديث، لأن الغالب على المتكلمين الذين صرحوا باعتماد طريقة السلف في مراحل متقدمة من حياتهم أنهم لم ينفكوا عن شيء من شوائب الكلام ومباحثه، بخلاف الكتاب محل البحث، فإن مصنفه قعيد بمذهب الحنابلة، ولعل الواسطي اكتسب ذلك من صحبته لابن تيمية

(1) يشير بالحرف (ط) إلى أنها مطبوعة، كما يشير بالحرف (خ) لما كان مخطوطا.

(2) الأعلام للزركلي 146/4- 147

(3) ضمن سلسلة أعلام المسلمين التي تصدرها دار القلم بدمشق.

ومن كثرة المطالعة في كتب السنة – أعني الاعتقاد –، كما ذكر ذلك من ترجم له ممن سنذكرهم قريبا.

ثم إن المناسبة بين نص الكتاب وعنوان كتاب الواسطي ظاهرة جدا، فقد سمى كتابه (النصيحة في صفات الرب)، وقد جاء في صدر الكتاب: " فهذه **نصيحة** كتبتها إلى إخواني في الله أهل الصدق والصفاء والإخلاص والوفاء " [1].

كما أن قوله (أهل الصدق والصفاء والإخلاص والوفاء) مناسب أيضا لما كان عليه من التصوف[2].

ولكن أوضح دليل وأجلاه على ما قلنا هو أن مؤلف الرسالة قال فيها: « قال الإمام **الحافظ عبد الغني في عقيدته** لما ذكر حديث الأوعال قال: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه[3]، وقال: حديث الروح رواه أحمد والدارقطني[4] » [1].

---

(1) النصيحة (ص 8 – 9)، ورسالة الاستواء (ص 29)

(2) قال ابن حجر في الدرر الكامنة 103/1: شيخ الحزامية الواسطي ثم الدمشقي الصوفي. وقال الذهبي في العِبَر 29/4: الإمام العارف الزاهد القدوة عماد الدين أحمد بن شيخ الحزامية إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي صاحب التواليف في التصوف، قال: وكان من سادة السالكين. وقال في تذكرة الحفاظ 191/4: **شيخنا** العارف الإمام اهـ. وقال ابن ناصر الدين في الرد الوافر (ص 71): وله مؤلفات كثيرة غالبها في اقتفاء السنة وطريق **التصوف على السنة** والرد على طوائف من المبتدعة كالاتحادية وغيرهم. وقال ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة 382/4: ألف تآليف كثيرة في الطريقة النبوية، والسلوك الآثري والفقر المحمدي، وهي من أنفع كتب الصوفية للمريدين، انتفع بها خلق من متصوفة أهل الحديث ومتعبديها. وقال السفاريني في اللوامع 210/1: الإمام أبو العباس عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي الصوفي المحقق العارف، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله سرهما –، الذي قال فيه شيخ الإسلام: إنه جنيد زمانه.

(3) انظر عقيدة الحافظ تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (ص 42)، وتذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي لعبد الرزاق البدر (ص 79)

(4) انظر عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي (ص 45)، وتذكرة المؤتسي (ص 91)

وقد راجعت صورة عن المخطوط بمكتبة الأزهر (الورقة رقم 6) فوجدتها مطابقة لما في المطبوع.

والواسطي توفي سنة (711 هـ)، فيمكن أن يكون ناقلا عن الحافظ عبد الغني المقدسي المتوفى سنة (600 هـ)، لكن من المحال أن يكون الناقل هو أبو محمد الجويني لأنه توفي سنة (438 هـ)، وإن كانت الجملة التي فيها ذكر الحافظ عبد الغني غير موجودة في كتاب النصيحة للواسطي[2].

وقد نقل الشيخ محمد رشيد رضا قطعة من رسالة الاستواء والفوقية في تفسيره، وقد نسبها للجويني، لكنه أغفل النصوص التي ذكرها الجويني في العلو – والتي يتخللها النقل عن الحافظ عبد الغني – طلبا للاختصار فقال: " بعد هذا شرع الإمام الجويني في إيراد النصوص من الكتاب العزيز والأحاديث النبوية في مسألة علو الرب تعالى " [3]، فليته أورد تمام الكلام.

ثم إن الشيخ الألباني صنع الشيء ذاته حيث لم يذكر النصوص التي ذكرها الجويني، واكتفى بقوله: " ثم ذكر بعض الآيات في الاستواء والفوقية والأحاديث في ذلك مما هو جزء يسير مما سيأتي في الكتاب " [4].

لكن مما يستغرب أن الشيخ الألباني عندما نقل كلام الإمام الجويني اعتمد على الرسالة المطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية كما في الهامش (1) ص 28 من

---

(1) رسالة الاستواء والفوقية / مجموعة الرسائل المنيرية 179/1، رسالة الفوقية والاستواء / الطبعة المستقلة (ص 49)

(2) انظر النصيحة في صفات الرب جل وعلا (ص 15)

(3) تفسير المنار 156/9

(4) مختصر العلو (ص 28)

«مختصر العلو»، والكلام نقله من (ص 176 - 177)، وفي هذه الطبعة يوجد النقل عن الحافظ عبد الغني بعد الكلام الذي نقله الألباني بصفحتين (ص 179)، كما أن نقله الثاني كان من (ص 181 - 183)، فيُتعجب من عدم تنبه الشيخ الألباني لذكر الحافظ عبد الغني المتوفى سنة (600 هـ) في رسالة الجويني المتوفى سنة (438 هـ).

وقد علق زهير الشاويش على هامش مختصر العلو للألباني بقوله: " لقد نقل الشيخ أحمد بن إبراهيم الواسطي في عقيدته (النصيحة في صفات الرب جل وعلا) رسالة الإمام الجويني، حتى إن نسبتها للجويني كان أولى، ولعلي أستدرك ذلك إن شاء الله " [1]، وذلك أن كتاب النصيحة للواسطي طبعه المكتب الإسلامي لزهير الشاويش بتحقيقه هو، وقد علمت ما في نسبتها للجويني.

وبعد هذا إن قال قائل: إن عماد الدين الواسطي حنبلي مترجَم له في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب والمقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لابن مفلح، وقد جاء في الرسالةِ محلِّ البحث: " لأني على مذهب الشافعي رضي الله عنه عرَفت فرائضَ ديني وأحكامَه " [2]، فكيف يستقيم ذلك ؟

الجواب: أن الواسطي كان أولا شافعيا، فقد قال الصلاح الصفدي في ترجمته: " عماد الدين ابن العارف شيخ الحزامية الواسطي **الشافعي** الصوفي " [3]، وقال ابن مفلح: " وكان شافعيا " [4]، بل ذكر الذهبي في ترجمته أنه " شيخ الشافعية " [1]، ثم

---

(1) مختصر العلو (ص 26) هامش رقم (1).

(2) رسالة الاستواء (ص 31)، النصيحة (ص 10)

(3) الوافي بالوفيات 140/6

(4) المقصد الأرشد 73/1

إنه **انتقل** إلى مذهب الإمام أحمد كما في المقصد الأرشد (73/1) وذيل طبقات الحنابلة (382/4) والرد الوافر لابن ناصر الدين (ص 71)، وقد قال ابن رجب ما مختصره: " ثم قدم دمشق، فرأى الشيخ تقي الدين ابن تيمية وصاحَبَه، وأقبل على مطالعة كتب الحديث والسنة والآثار، واعتنى بأمر السنة أصولا وفروعا، **وانتقل إلى مذهب الإمام أحمد،** وبلغني أنه كان يقرأ في « الكافي » على الشيخ مجد الدين الحراني، واختصره في مجلد سماه « البلغة »، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يعظمه ويجله[2]، قال البرزالي عنه في معجمه: وكان محبا لأهل الحديث، معظما لهم، وقال الذهبي[3]: كان داعية إلى السنة، ومذهبه السلف الصالح في الصفات، يُمِرها كما جاءت " [4].

وترجمته تراها في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (380/4 - 384)، والوافي للصلاح الصفدي (140/6)، وفوات الوفيات للكتبي (56/1)، والدرر الكامنة لابن حجر (103/1)، والشذارت لابن العماد الحنبلي (24/6)، والأعلام للزركلي (86/1).

---

(1) العِبَر 274/2

(2) وكان الواسطي يبادله التعظيم والإجلال، قال ابن عبد الهادي: وكان قد كتب رسالة وبعثها إلى جماعة من أصحاب الشيخ وأوصاهم فيها بملازمة الشيخ والحث على اتباع طريقته وأثنى فيها على الشيخ ثناء عظيما، وهذه نسخة الرسالة التي كتبها... وقد أوردها ابن عبد الهادي بتمامها، وسماها مؤلفها « التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار ». انظر العقود الدرية لابن عبد الهادي (ص 306 - 337)

(3) والواسطي من شيوخ الذهبي وقد قال فيه: شيخنا العارف الإمام عماد الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي ابن شيخ الحزاميين. تذكرة الحفاظ 191/4 - 192

(4) ذيل طبقات الحنابلة 381/4 - 382

ولم أجد عند من ترجم له ذكرا لرسالته (النصيحة)، لكن رأيت في غير كتب التراجم الإشارة إليها، وذلك في كتاب لوامع الأنوار البهية للسفاريني حيث قال: "ذكر الإمام أبو العباس عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي الصوفي المحقق العارف، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله سرهما، الذي قال فيه شيخ الإسلام: إنه جنيد زمانه – في رسالته **نصيحة الإخوان** ما حاصله في مسألة العلو والفوقية والاستواء... " [1].

ورأيت ذلك أيضا في تفسير الشيخ جمال الدين القاسمي محاسن التأويل حيث قال: " وقال الإمام الواسطي ابن شيخ الحرمين الشافعي في « عقيدته »: إنني كنت برهة من الدهر متحيرا في ثلاث مسائل... " [2]، والمراد بـ « عقيدته » كتاب «النصيحة»، والعبارة في مقدمته (ص 9).

ثم إن ناسخ المخطوط اختلط عليه الأمر، حيث نُسبت الرسالة إلى (أبي المعالي عبد الله بن يوسف الجويني)، وهذا خطأ، فأبو المعالي هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، وهو إمام الحرمين (478 هـ)، وعبد الله بن يوسف هو أبو محمد الجويني (438 هـ) والد إمام الحرمين أبي المعالي، ثم ذكر أن صاحب الرسالة قرأ الأصول على والده، وهذا يعني أنه يقصد إمام الحرمين الجويني، لكنه ذكر ثناء الصابوني على الجويني، وإنما قال الصابوني ذلك في أبي محمد الجويني الوالد لا إمام الحرمين، وقد قال الزركلي: " رأيت في ظاهر أصلها المخطوط ما نصه: قال شيخ

---

(1) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية 210/1

(2) محاسن التأويل 467/3

الإسلام الصابوني: « لو كان الجويني في بني إسرائيل لنقلت لنا أوصافه وافتخروا به[1]» " [2].

هذا وقد رأيت في بعض الكتب دعوى عدم صحة نسبة الرسالة للجويني ولكنها دعوى قد بنيت على مقدمات لا تبلغ درجة غلبة الظن بصحة المطلوب فضلا عن الجزم والقطع، وهذا الباب لا ينبغي التساهل فيه، أعني نفي نسبة الكتب إلى أهلها، بل ينبغي أن يكون طريقه محفوفا بالدقة والإنصاف، وأن نعلم أن الغاية من هذا لا تتعدى التحقق من النسبة، ثم البحثُ في مضمونها له محل آخر، فكونُ الرسالة صحيحةَ النسبة للجويني لا يعني صحة ما فيها، فالجويني يخطأ ويصيب، وكون النسبة غير صحيحة لا يعني بطلان ما فيها، كما أننا قد نحكم على حديث بالوضع، ولا يستلزم ذلك أن يكون الكلام في نفسه باطلا، بل كثير من الموضوعات تتضمن حِكَما ومعاني جليلة، وإنما الحكم بالصحة والبطلان ينبغي أن يكون بالنظر في الرسالة بقطع النظر عن واضعها.

فالحاصل أنه لا ينبغي نفي نسبة الكتب إلى أهلها بناء على مقدمات ضعيفة، ثم لو سلمنا أن الجويني رجع عن طريقة الأشعري، فكان ماذا ؟ إن كان طريق الأشعري حقا، فالحق حق بذاته، ولا يضره رجوع الجويني وغيره عنه، فينبغي الفصل بين المقالات وقائليها عند النظر، وعلينا خدمة العلم للعلم لا لرجل أو لمذهب، والله الموفق.

---

(1) انظر طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي 74/5، ونصها: لو كان الشيخ أبو محمد في بني إسرائيل لنقل إلينا شمائله ولافتخروا به. وكذا طبقات الشافعيين لابن كثير (ص 391)

(2) الأعلام للزركلي 146/4- 147

ثم من جميل ما يُذكر في هذا المقام قول الحافظ ابن عساكر رحمه الله: " فإن قيل: إن الجم الغفير في سائر الأزمان وأكثر العامة في جميع البلدان لا يقتدون بالأشعري ولا يقلدونه ولا يرون مذهبه ولا يعتقدونه، وهم السواد الأعظم وسبيلهم السبيل الأقوم، قيل: لا عبرة بكثرة العوام ولا التفاتَ إلى الجهال الغتام، وإنما الاعتبار بأرباب العلم والاقتداءُ بأصحاب البصيرة والفهم، وأولئك في أصحابه أكثر ممن سواهم ولهم الفضل والتقدم على من عداهم، على أن الله عز وجل قال: ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، وقال عز من قائل: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾، وقد قال الفضيل بن عياض رحمه الله: لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها ولا تغترن بكثرة الهالكين " [1].

قال زهران: لا ريب أن حجة ابن عساكر الأخيرة هي الأقوى، فالأشعري إن كان على الصواب فلن تضرَّه قلة تابعيه، وإن كان على الخطأ فلن يساعده كثرة أتباعه وإن كانوا من أصحاب البصيرة والفهم، لأنهم وإن كانوا كذلك فليسوا بمعصومين، وشرط الحجة عصمتها، وعليه فإن الحق حجيته من ذاته لا من أتباعه، قلُّوا أو كثروا، ويعجبني ما أورده ابن السبكي في طبقاته حين قال: " قال الشافعي: قلت لمحمد بن الحسن: لِمَ زعمتَ أنه إذا أدخل يده في الإناء بنية الوضوء ينجس الماء، وأحسب لو قال هذا غيركم لقلتم عنه إنه مجنون، فقال: لقد سمعت أبا يوسف يقول: قول الحجازيين في الماء أحسن من قولنا وقولنا فيه خطأ، قلت: فأقام عليه ؟ قال: قد رجع إلى قولكم نحوا من شهرين ثم رجع، قلت: **ما زاد رجوعه إلى قولنا قوة ولا وهَّنه رجوعه عنه** " [2].

---

(1) تبيين كذب المفتري (ص 331)، وأثر الفضيل أورده بإسناده غير أني حذفته طلبا للاختصار.

(2) طبقات الشافعية الكبرى 2/137 - 138

ورضي الله عن عبد الله بن مسعود إذ يقول: " الجماعة أهل الحق، وإن كنت وحدَك " [1]، قال نعيم بن حماد: " يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ " [2].

وقال ابن القيم رحمه الله: " اعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده وإن خالفه أهلُ الأرض " [3].

وقال أبو شامة رحمه الله: " وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك بالحق قليلا والمخالف كثيرا، لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم " [4].

ويقول الشاطبي رحمه الله - حاكيا ما كان يلقاه من أهل زمانه -: " وتارة نُسبتُ إلى مخالفة السنة والجماعة بناءً منهم على أن الجماعة التي أُمر باتباعها - وهي الناجية - ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان " [5].

وقال ابن القيم رحمه الله: " فمسخ المختلفون الذين جعلوا السواد الأعظم والحجة والجماعة هم الجمهور وجعلوهم عيارا على السنة، وجعلوا السنة بدعة والمعروف منكرا لقلة أهله وتفردهم في الأعصار والأمصار، وقالوا: من شذَّ شذ الله به

---

(1) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي 404/2

(2) الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة (ص 22)

(3) إعلام الموقعين 308/3

(4) الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة (ص 22)

(5) الاعتصام 27/1 - 28

في النار، وما عرف المختلفون أن الشاذ ما خالف الحق وإن كان الناس كلهم عليه إلا واحدا منهم، فهم الشاذون، وقد شذ الناس كلهم زمنَ أحمد بن حنبل إلا نفرا يسيرا فكانوا هم الجماعة، وكانت القضاة حينئذ والمفتون والخليفة وأتباعه كلهم هم الشاذون، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة، ولما لم يتحمل هذا عقولُ الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين أتكون أنت وقضاتُك وولاتك والفقهاء والمفتون كلهم على الباطل وأحمدُ وحده هو على الحق، فلم يتسع علمه لذلك فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل، فلا إله إلا الله ما أشبه الليلة بالبارحة وهي السبيل المهيع لأهل السنة والجماعة حتى يلقوا ربهم، مضى عليها سلفهم وينتظرها خلفهم "[1].

وقد كتب ابن عباس إلى عليٍّ يستحثه، فكتب إليه عليٌّ مجيبا: " إنه ينبغي لك أن يكون أول عملك بما أنت فيه، البصرَ بهداية الطريق، ولا تستوحش لقلة أهلها، فإن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين، لم يستوحش مع الله في طريق الهداية إذ قل أهلها، ولم يأنس بغير الله "[2].

وقال ابن الوزير رحمه الله: " ولا ينبغي أن يستوحش الظافر بالحق من كثرة المخالفين له كما لا يستوحش الزاهد من كثرة الراغبين ولا المتقي من كثرة العاصين ولا الذاكر من كثرة الغافلين، بل ينبغي منه أن يستعظم المنة باختصاصه بذلك مع كثرة الجاهلين له الغافلين عنه، وليوطن نفسه على ذلك فقد صح عن رسول الله أنه قال: إن هذا الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء، رواه مسلم في الصحيح من حديث أبي هريرة "[3].

---

(1) إعلام الموقعين 308/3 - 309

(2) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي 405/2

(3) إيثار الحق على الخلق (ص 29)

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله: " قال الأوزاعي في قوله ﷺ: « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ »: أما إنه ما يذهب الإسلام ولكن يذهب أهل السنة حتى ما يبقى في البلد منهم إلا رجل واحد.

ولهذا المعنى يوجد في كلام السلف كثيرا مدحُ السنة ووصفُها بالغربة ووصف أهلها بالقلة، فكان الحسن – رحمه الله – يقول لأصحابه: يا أهل السنة ترفقوا – رحمكم الله – فإنكم من أقل الناس، وقال يونس بن عبيد: ليس شيء أغرب من السنة وأغرب منها من يعرفها، وروي عنه أنه قال: أصبح من إذا عرف السنة فعرفها غريبا وأغرب منه من يعرفها، وعن سفيان الثوري قال: استوصوا بأهل السنة فإنهم غرباء.

ومراد هؤلاء الأئمة بالسنة: طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات والشهوات " [1].

وقال يوسف بن أسباط: قال سفيان: يا يوسف إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سنة فابعث إليه بالسلام، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب أنه صاحب سنة فابعث إليه بالسلام فقد قَلَّ أهل السنة والجماعة[2]، وقال ابن أبي بكر بن عياش: السنة في الإسلام أعز من الإسلام في سائر الأديان[3].

وقال ابن القيم رحمه الله: " ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي ﷺ التمسكُ بالسنة إذا رغب عنها الناس، وتركُ ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريدُ التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وتركُ الانتساب إلى أحد غير

---

(1) كشف الكربة في وصف أهل الغربة (ص 319)

(2) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص 11)

(3) تلبيس إبليس (ص 12)

الله ورسوله لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة[1]، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقا، وأكثر الناس بل كلهم لائم لهم، فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهلَ شذوذ وبدعة ومفارقةٍ للسواد الأعظم " [2].

وقال الشاطبي رحمه الله: " هذه سنة الله في الخلق: إن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾، ولِيُنجز الله ما وعد به نبيَّه ﷺ من عود وصف الغربة إليه، فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم، وذلك حين يصير المعروف منكرا والمنكر معروفا وتصير السنة بدعة والبدعة سنة، فيقام على أهل السنة بالتثريب والتعنيف كما كان أولا يقام على أهل البدعة طمعا من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال، ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة، فلا تجتمع الفرق كلها على كثرتها على مخالفة السنة عادةً وسمعًا، بل لا بد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتي أمر الله، غير أنهم لكثرة ما تناوشهم الفرق الضالة وتناصبهم العداوة والبغضاء استدعاءً إلى موافقتهم لا يزالون في جهاد ونزاع ومدافعة وقراع آناء الليل والنهار، وبذلك يضاعف الله لهم الأجر الجزيل ويثيبهم الثواب العظيم " [3].

وقد استطردنا في هذا لمسيس الحاجة إلى تقرير هذا الأصل، حتى يمحض الطالب قصده في البحث لطلب الحق، وينفصل عن شوائب التعصب والهوى، وفقنا

---

(1) انظر ما ذكرناه في المقدمة الرابعة من « **المقدمات الضرورية** لطلاب العلوم الشرعية » حول النسبة للمذاهب والرجال، فهو مفيد إن شاء الله.

(2) مدارج السالكين 198/3

(3) الاعتصام 17/1 - 18

الله جميعا لخدمة العلم وأهله، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

وكتب

زهران بن إبراهيم كاده
zahrankada@gmail.com
http://www.facebook.com/zahrankada